دروس من هدي القرآن الكريم

معاني سورة العصر

ألقاها السيد/ حسين بدر الدين الحوثي

اليمن ـ صعدة

هذه الدروس نقلت من تسجيل لها في أشرطة كاسيت، وقد ألقيت ممزوجة بمفردات وأساليب من اللهجة المحلية العامية.
وحرصاً منا على سهولة الاستفادة منها أخرجناها مكتوبة على هذا النحو.
والله الموفق.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

السلام عليكم ـ أيها الإخوة ـ ورحمة الله وبركاته.

كما ذكرتم أنكم تشرفتم بزيارتنا، فنحن نتشرف بزيارتكم، نحن من نتشرف بمقابلة هذه الوجوه الكريمة، نحن من نتشرف بزيارة إخوة أعزاء، إخوة في الله.

نحن نشكركم كثيراً، نشكركم كثيراً على كرمكم، وحسن استقبالكم، وهذا شيء عرفت به [همدان] في تاريخها الطويل كرمهم وصدقهم ووفاؤهم.

وكما أسلفنا في لقاء سابق معكم، أن همدان كانت تبهر عظماء أهل البيت بكرمها وصدقها ووفائها وثباتها، حتى كان يعبر أولئك العظماء عن تقديرهم الكبير لهذه القبيلة العظيمة في تاريخها بالدعاء، والدعاء الذي نحن نلمس آثاره فيكم، لاسيما في هذا العصر الذي كثر فيه الضلال، كثر فيه المضلون، تشعبت فيه الأهواء، وكثر فيه المنحرفون عن هدي الله وهدي رسوله (صلوات الله عليه وعلى آله) وهدي أهل البيت.

لكن همدان كانت ما تزال متميزة، هجر علمية كانت تزخر بالعلماء رأيناها كيف سقطت وذابت، لكن همدان ظلت صامدة، ظلت وفية، ظلت ثابتة على عقائدها، ظلت ثابتة على ولائها لمحمد (صلوات الله عليه وعلى آله) ولآل محمد.

إذا كنا نرى وغيرنا الكثير من آبائنا رأوا في هذا العصر كيف كانت آثار دعاء أئمة أهل البيت بارزة وواضحة جلية في هذه القبيلة العظيمة.

وإن كان لهمدان في تاريخها المواقف العظيمة، والثبات الدائم في سبيل الله، في سبيل المستضعفين من عباد الله، في سبيل إعلاء كلمة الله، في سبيل مواجهة أعداء الله، مواقف بارزة في ماضيها وتاريخها الطويل، فإننا في عصر ديننا علماؤنا تاريخنا أمتنا أحوج ما تكون إلى الأوفياء، إلى الصادقين إلى أهل الثبات على المبادئ.

لقد قلنا في مرة من المرات لبعض الإخوان منكم: أنكم أنتم يا أهل همدان لو انحرفنا نحن عن هذا الطريق، فإنكم من لا ينبغي لكم أن تنحرفوا؛ لأنكم من أرسيتم قواعد هذا الدين في هذا البلد، وكنتم من تلتفون حول الإمام علي (عليه السلام) في صنعاء حلقة كبيرة أصبح اسمها خالداً إلى اليوم.

أيها الإخوة شرف عظيم لنا أن نجتمع؛ لننصح أنفسنا بتقوى الله سبحانه وتعالى، لنعرف واجبنا أمام الله، لنعرف مسؤوليتنا أمام دين الله، وأمام عباده، لنعرف طريق نجاتنا في الدنيا وفي الآخرة، حتى نفوز بالسعادة في الدنيا والشرف والعزة والكرامة التي أرادها الله لعباده المؤمنين، ونسعد برضوان الله وبجنته التي أعدها لأوليائه، أعدها للمؤمنين الصادقين، أعدها للمتقين، أعدها للعاملين كما قال عنها: {فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} (الزمر: من الآية٧٤) **لنحظى بكل ذلك إنشاء الله سنتواصى بالحق، ونتواصى بالصبر على الحق.**

نحن نرى أعداء الدين، هم من يسهرون الليالي، كيف ينبغي لنا أن لا نكون من يقابل ذلك بالتواصي فيما بيننا بالحق، نذكّر بعضنا بعضا بالحق، بمواقف الحق، بقول الحق، باعتقاد الحق، بالبذل في سبيل الحق. من العار على المسلمين أن يظلوا نائمين وأعداؤهم هم المستيقظون، يخططون ويمكرون وينفذون ويبذلون الملايين، تلو الملايين في سبيل إذلالهم، وإضعاف مقامهم، وإبعادهم عن دينهم، ونحن نظل نائمين.

إنها إساءة عظيمة إلى ديننا، وغفلة كبرى عن مصيرنا، غفلة كبرى عما يريد الإسلام لنا، أن نظل نائمين وأعداؤنا هم مستيقظون.

من الغفلة الكبيرة ومن الغفلة الشديدة المؤسفة جداً، أن لا نفهم بعد أن ديننا عظيم، وأن رسولنا عظيم، وأن إلهنا عظيم، وأن قبلتنا عظيمة، وأن مقدساتنا عظيمة، وأن قدواتنا عظيمة، وأنه يراد لنا أن نكون أمة عظيمة؛ إذا ما تمسكنا بهذا الدين، إذا ما عرفنا، إذا ما فهمنا أن كل شرفنا وعزتنا ورفعتنا وقوتنا ومكانتنا

وسعادتنا في الدنيا وفي الآخرة متوقفة على الالتزام به والعمل في سبيله، لا نفهم ذلك، بينما أعداؤنا هم من يفهمون ذلك.

نحن نرى أن كل من توجه لمحاربة هذه الأمة؛ إنما يتوجه في المقدمة لمحاربة ديننا، ها هم اليهود والنصارى يعلمون علم اليقين أنه ما لم يحاربوا هذا الدين، فإنهم لن يصنعوا بالأمة هذه شيئاً! هم أعداؤنا.

لماذا توجهت حربهم نحو ديننا؟! إلا لأنهم يعلمون ويفهمون أن ضرب الدين هو ضرب للأمة، أن إقصاء ديننا عنا، هو إضعاف لنا، هو إذلال لنا، هو حط لنا، لأن كرامتنا مرتبطة بالدين، فليقصونا عن كرامتنا، ومصدر عزتنا لنكون ضعافاً أذلاء أمامهم.

هذا شاهد حي، وكل واحد يلمسه، أو يستطيع أن يلمسه، أنهم لو لم يكونوا يعلمون أن ديننا هو أساس عزتنا، وكرامتنا وقوتنا ووحدتنا وألفة قلوبنا، لما بذلوا دولارا واحدا في سبيل محاربته، لتوجهوا نحو حربنا كما هي العادة في الصراعات بين البشر، لكننا رأينا العكس، لم يتوجهوا نحونا ليحاربونا كما هي العادة في الصراعات يحاربوننا مواجهة، إنما عمدوا إلى الدين أيضاً، ليقصونا عنه، ليبعدونا عنه، ليطمسوا أعلامه، ليجعلونا جاهلين به، ليشغلونا بأشياء أخرى كثيرة جداً جداً عنه تحت اسم ثقافة، تحت اسم علم.

حتى وصل بهم الحال إلى أن يربطونا بتاريخنا الجاهلي، بدلا من أن نرتبط بتاريخنا الإسلامي، وأن نرتبط بأعمدة من الأحجار تركها الجاهليون، بدلاً من أن نرتبط بأعلام للهدى تركهم محمد لنا، هكذا صرفوا الأمة، وهكذا أشغلوا ذهنية الناس، لم يتركوا لنا فراغا أبداً لنفكر، أعمدة في مارب، عرش بلقيس، آثار هنا وهناك من الأحجار، هي مجد اليمنيين، هي حضارة اليمنيين، هي أصالة اليمنيين، هي الدليل على أنهم كانوا أمة متحضرة، أنهم كانوا وكانوا وكانوا. وهكذا استجبنا لهم.

وهكذا صنعوا بالمصريين، فشدوهم إلى الآثار الفرعونية، ليتثقفوا بتلك الثقافة التي تجعل المصري المسلم يعتز بتمثال (رمسيس) لفرعون أكثر مما يعتز بمحمد، ليعتز بالأهرام أكثر مما يعتز بالكعبة، ليعتز بنقوش فرعونية أكثر مما يعتز بسطور آيات القرآن الكريم، وهكذا صنعوا بالعراقيين يشدوهم إلى حضارة بابل، وهكذا صنعوا بالسوريين إلى الحضارة الآشورية، وهكذا لم يدعوا لم يدعوا شيئاً يمكن أن يجعلنا نتجه نحو ديننا إلا وشغلونا عنه، كل شيء يصرفنا عن هذا الدين جعلوا أذهاننا هي المتوجهة إليه، وأغرقوا أذهاننا به.

إن كنا نجهل، إن كنا نجهل أو كنا لا نستطيع أن نفهم من خلال القرآن الكريم، ومن خلال الشواهد التاريخية، أن سعادتنا وعزتنا ومجدنا ورفعتنا وكرامتنا في الدنيا والآخرة هي مرتبطة بهذا الدين، فإن على كل واحد منا أن ينظر إلى هذا المثال، إلى هذا المثال، وأنبه كل شخص منا أن ينظر إلى أين يتجه أعداؤنا، ألم يتجهوا إلى الدين والقيم أكثر مما اتجهوا إلينا؟!.

ها نحن في اليمن، وها نحن في الحجاز، وها نحن في بلدان أخرى لم نتعرض لقصف مسلح، لم نتعرض لصواريخ ولم نتعرض لشيء من قبل أعدائنا؛ لكننا نرى أنفسنا مهزومين، نرى أنفسنا أذلاء، والعرب كلهم يشهدون على أنهم في حالة من الضعف والخزي والإحباط لم يسبق لها في تاريخهم مثيل، من أين جاء هذا؟.

لماذا لم يحاربنا الأعداء شخصياً، واتجهوا إلى الدين؟ لأنهم يعلمون أنهم لو اتجهوا إلى حربنا شخصياً، واتجهت صواريخهم ودباباتهم وطائراتهم والدين لا يزال حياً في أوساطنا، فإنهم أبداً لن يستطيعوا أن يهزمونا.

[الله أكبر ـ الموت لأمريكا ـ الموت لإسرائيل ـ اللعنة على اليهود ـ النصر للإسلام]

هكذا عرفوا من أين يدخلون إلينا، وهكذا عرفوا كيف يوجهون الضربة القاضية إلينا، حتى يقال عن بعض زعمائهم أنه وضع خطة على هذا النحو وهو في السجن، وهو في أعماق السجون، ونحن في بيوتنا وفوق فراشنا وبين أهلينا لا نفكر، لا نفكر كيف نصنع، أن يفكر نصراني في داخل السجن وفي ظلمات السجن؛ ليضع خطة قد يكون عمرها نحو مائتي سنة، ونحن، نحن من لا نلتفت، ونحن لما نفكر، ونحن من لا ننظر، ونحن في بيوتنا وفي

مساجدنا وبين أيدينا القرآن الكريم فيه الخطط الكاملة لهدايتنا كيف نعمل، وكيف ننجح وكيف نصنع في مواجهة أعدائنا.

مَن الأولى بالاهتمام؟ مَن الأولى بأن يكون مهتماً، بأن يكون يقضاً، بأن يكون حذراً، بأن يكون حركة دائمة، بأن يكون مواقف مستمرة ووثابة، المؤمن متوثب في كل مواقفه، هل أولئك النصارى؟ هل أولئك اليهود من ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من عنده أم نحن المسلمون؟ والله إن المسلمين من ينبغي لهم أن يكونوا أفضل اهتماماً، وأكثر تفكيراً، وأكثر حركة، وأعظم بذلاً.

لكننا لما أقصينا عن ديننا نسينا الله فنسينا أنفسنا، وهكذا: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ}(الحشر: من الآية١٩) إن من ينسى الله ينسى نفسه، فلا يفهم أن في هذا خطر عليه، ولا يفهم أن في هذا نجاته، ولا يفهم أن في هذا سعادته، ولا يفهم أن في هذا شقاؤه، ولا يفهم شيئاً يبيت ناسياً، ناسياً فيقدم على الله أيضاً ناسياً{قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى}(طه: الآية١٢٦) من يعيش ناسيا في هذه الدنيا عما ينبغي أن يعمله، من يعيش ناسياً في هذه الدنيا عن خطاب الله له؛ سيكون ناسياً لعزته وكرامته وسعادته في الدنيا، سيكون ناسياً لكيف يعمل في مواجهة أعدائه، بل قد ينسى أعداءه بالكلية، قد ينسى أعداءه بالكلية، فمن عاش ناسياً في الدنيا، سيقدم على الله ناسياً لكل ما فيه نجاة له، فيكون مصيره جهنم.

ما أشقى الإنسان أن يعيش في هذه الدنيا ذليلاً مهاناً ثم يكون مصيره جهنم! ما أشقى الإنسان أن يعيش في هذه الدنيا معيشة ضنكا ثم يحشر يوم القيامة إلى الله وبين يديه أعمى!.

فنحن ـ أيها الإخوة ـ عندما نجلس، عندما نجتمع، أليس كل واحد منا قد سمع الكثير الكثير مما يدور حول هذه الأمة، مما يحاك ضد الإسلام والمسلمين؟ كلنا نسمع، وكلنا نرى ونشاهد، ألسنا نشاهد ما يجري على الفلسطينيين المساكين كل يوم، ما يجري ضدهم، ما تعمله إسرائيل ضدهم، من تقتيل وتشريد وتجويع وتدمير للمنازل وتدمير للمزارع؟ كلنا نشاهد ذلك، واليهود ليسوا أعداء للفلسطينيين فقط، إنهم أعداء للمسلمين جميعاً، وخاصةً شيعة أهل البيت، وخاصة أهل البيت، إنهم أعداء ألداء.

عندما نجلس في مجلس كهذا؛ يجب أن نتفهم ما يحاك ضد الإسلام والمسلمين، ولما كان كل عمل يحاك ضد الإسلام والمسلمين، فإن كل تفكير في مواجهة ذلك، بالعمل، بالقول، بالمال، بالنفس، كل تذكير بأي شيء من هذه في مواجهة ذلك، هو من التواصي بالحق الذي أوجبه الله على المؤمنين.

إن الله يقول في سورة نحن نقرؤها جميعاً، سورة قصيرة، لكن الله سبحانه وتعالى الرحيم بنا، الذي لم يدع مجالاً لهدايتنا إلا وسلكه وأرشدنا إليه، إذا كان واحد منا لا يستطيع أن يقرأ سورة من تلك السور الطوال، فقد وضع له سوراً قصاراً صغاراً ثلاث آيات أو أربع آيات يستطيع أن يقرأها، يستطيع أن يحفظها، وتعطيه تعطيه من الهدى، ما يمكن أن تعطيه تلك السورة، وتنبهه على ما تنبهه عليه تلك السورة الكبيرة.

سبحان الله ما أرحمه، الذي يعجز عن أن يقرأ سورة البقرة، ها هي سورة العصر، إنه رحيم بي وبك، لم يضع كتاباً فقط لا يمكن أن يتناوله أو يقرأ سورة منه، إلا العلماء، إلا من يتفرغون، جعله هدايةً حتى لذلك الإنسان الفلاح الذي لم يتوفر له فرصةٌ للتعليم، أو لم تهيئ له ظروفه فرصة ليتعلم، أن يتناول من القرآن الكريم سوراً قصاراً فيها تذكيرٌ كامل له، فيها هدى كاملٌ له.

ففي سورة العصر، يقول سبحانه وتعالى: {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}(العصر) أقسم الله سبحانه وتعالى، وعندما أقسم، وعندما أقسم، أقسم وهو من يعلم الغيب والشهادة، أقسم على حقيقة يعلمها هو، أن هذا الإنسان الذي أراد له أن يكون كريماً، أراد له أن يسلك طريق الفلاح والنجاح، أنه سيكون خاسراً، وأنه في خسر، إلا، إلا من؟ إلا الذين آمنوا، آمنوا بالله، آمنوا برسول الله، آمنوا بكتاب الله، آمنوا باليوم الآخر، آمنوا بصدق الله في وعده ووعيده، آمنوا إيماناً صادقاً.

وما أوسع ما تحدث الله عن صفات المؤمنين الصادقين في القرآن الكريم: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}(الأنفال: الآية٢) {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}(التوبة: من الآية٧١) {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}(الحجرات: الآية١٥) {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ}(البينة: الآية٧).

ذكر الله صفات المؤمنين في القرآن الكريم، وكلها صفات عملية، وكلها عمل، كلها بذل، كلها جهاد، كلها عطاء، كلها تواصي بالحق وصبر على الحق، كلها مسارعة إلى الخيرات، كلها سبق إلى الفضيلة، كلها بذل في سبيل الله في أجمل وأرقي صوره: {إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}(التوبة: الآية١١١).

هكذا المؤمنون، {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا}، إيمان من هذا النوع، ليس مجرد لقلقة باللسان، أو تصديقٍ أجوف، إيمان يبعث على العمل، إيمان يبعث على اليقظة والوعي، إيمان يجعلك دائماً ليس فقط تعرف ما صنع عدوك، بل تعرف ما يمكن أن يصنع عدوك، من خلال القرآن الكريم، الذي فيه ((نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم)) خبر ما بعدكم، هو الذي ينبئك إذا كنت مؤمن تهتدي به، بحيث تستطيع أن تعرف ما يمكن أن يصنعه عدوك في المستقبل، ونحن نرى أنفسنا لا نفهم ما قد صنعه أعداؤنا على مدى عشرات السنين بل على مدى مئات السنين.

نحن بحاجة إلى ذلك الإيمان، الإيمان الصادق، الإيمان الذي يجعلك شعلةً متوهجة، يجعلك دائماً يقضاً مستنيراً، أيُّ إيمان هذا الذي نحن عليه! إيمان بكتابٍ هو ضياءٌ ونور، ونحن نعيش في ظلمات في ثقافتنا وأفكارنا وفي رؤيتنا إلى ما يدور حولنا، وإلى ما يحاك ضدنا.

أين نور القرآن؟ {قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ}(المائدة: من الآية١٥) أين ضياء القرآن في أنفسنا وفي واقع حياتنا؟. إنه نور يضيء لك الحياة كلها بدروبها، فتعرف أين عدوك، أين موقعه، ماذا يريد أن يعمل؟.

لقد عمل الغربيون على أن يكتشفوا أجهزة يرون من خلالها في الظلام الدامس. إن القرآن، إن القرآن هو من يجعلك ترى، ترى بنوره، ترى بضيائه أين طريق الحق، أين أعداؤك، أين أولياء الله، أين سبيل الله، أين الخطط الحكيمة، أين المنهج القويم، أين العزة، وأين الكرامة، وأين المجد، وأين الشرف، أين طريق الجنة، أين طريق رضوان الله سبحانه وتعالى في ظلمات هذه الدنيا، في ظلمات الباطل، في ظلمات ما ينشره أعداء الإسلام من تضليل وتزييف وتحريف.

إن هذا من الشواهد على أننا لا نستضيء بضياء القرآن، ولا نستنير بنور القرآن، نحن المسلمون، نحن المسلمون ليس فقط نحن وحدنا، الكل. {قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ} ضياء، شفاء لما في الصدور، ولكننا نحن لا نستنير ولا نستضيء.

{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} الإيمان نفسه، عبارة الإيمان من يتأملها في القرآن الكريم، من يستعرض، من يستعرض الإيمان في القرآن الكريم، لا تجد أن هناك إيماناً أو اعتقاداً لمجرد الإيمان أو لمجرد الاعتقاد، ليس هناك شيء في الإسلام من هذا فيما أعتقد، كل عقيدة فيه عملية، كل إيمان فيه عملي ويبعث على عمل، ومع ذلك يؤكد من جديد: {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} الإيمان عمل يبعث على العمل.

وما أكثر ما تكررت هذه الكلمة في القرآن الكريم مرتبطة بالإيمان، مرتبطة بالإيمان، إذا لم تكاد تقطع أن أسلوب القرآن يرى أنه من غير الطبيعي، ومن غير المستحسن لو جاء بكلمة مثلا: [إلا الذين أمنوا وعملوا الواجبات] لماذا؟ ليس هناك انسجام بين أن يقول: إلا الذين أمنوا وعملوا الواجبات؛ لأن المؤمن الحقيقي، المؤمن

الحقيقي هو من لا يقف عند حدود الواجبات فقط، إنه يبحث على العمل الصالح أينما هـو، أينمـا كـان وفي أي شكل يكون، واجباً كان أو مندوباً كان أو كيفما كان.

لذا جاء دائماً بكلمة: وعملوا الصالحات، وعملوا الصالحات، إن الله يريد منا أن نكون علـى هـذا المستوى، إنـه يريد لعباده المؤمنين أن يكونوا على أرقى مستوى يمكن أن يصل إليه البشر.

{إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} (الإسراء: من الآية٩) ولكن كيف الواقع بالنسبة لنا؟ نحـن مـن إيماننـا لـيس عملياً، ونحن أيضاً بالنسبة للمفردة الأخرى {وعملوا الصالحات} من لا نكاد نؤدي الواجبات، ونحن إذا ما طرأت أمور، أو حدثت أحداث، أو ظهرت مواقف قد تكون شديدة قد تكـون صـعبة، نحـن مـن ثقفنـا أنفسـنا ثقافـةً محدودةً ضيقة هي فقط الالتزام، هي فقط الالتزام ـ إذا لم يكن هناك مجال من الالتزام ـ بالواجبات فقط، ثـم نكون حينئذ من يبحث عن المبررات للتخلّص حتى من الواجبات.

إن الله يريد لعباده المؤمنين أن يكونوا هم من يبحث عن الأعمال الصالحة لينطلق فيها، ليسير فيها، {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} (العصر).

[الله أكبر ـ الموت لأمريكا ـ الموت لإسرائيل ـ اللعنة على اليهود ـ النصر للإسلام]

وإنها صفة يؤكد الله سبحانه وتعالى، أنها صفة لازمة من صفات المؤمنين؛ لأنه متى يمكن للإنسان أن يكون يقضاً إلا إذا كان مؤمناً صادقاً في إيمانه، من الذي يمكـن أن ينطلـق مـع الآخـرين، أو متـى يمكـن أن نصـل إلى هـذه الدرجة، فنتواصى فيما بيننا بالحق؟ إلا متى ما كان يهمنا أمر الحق، نعرف الأمور حـق معرفتهـا، نعـرف عظمـة ديننا، نعرف ما يدبره أعداء هذا الدين لديننا ولنـا، ونعـرف كيـف هـي السـنن الـتي توصـلنا إلى رد شـرهم ومواجهتهم، ورد كيدهم. عندما يكون هناك متيقّظون ومهتمون هم من يتواصون بالحق.

متى ما غاب التواصي بالحق فيما بين الناس؛ فـاعرف أنهـم في حـال غفلـةٍ عمـا يـراد بهـم، أنهـم لا يشـعرون بمسؤوليةٍ أمام دينهم وأنفسهم، لكن المؤمن، المؤمن الذي لن يكون خاسراً ولن يخسر، هم أولئك، المؤمنون الذين هم ناجون من الخسارة، هم أولئك الذين ينطلقون فيما بينهم بالتواصي بالحق، تتواصى بالحق، وما أوسع دائرة الحق! الحق مواقف، الحق أقوال وأعمال، وبذل وتضحية، ووحدة وألفة، وصدقٌ وثباتٌ وإخلاص.

{وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ}، فيقول بعضنا لبعض: إن أعداءنا يعملون كذا وكذا ماذا يجـب أن نعمـل؟ وعنـدما يقـول الله سبحانه وتعالى: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ}، فلأن المؤمن دائماً عندما ينطلق في مواجهة أعدائه، فإن مواقفه كلها عادة ما تكون حقاً؛ لأن أعداء الإسلام كل عمل يعملونه ضد الإسلام هو باطل، فنص العبارة هـي ممـا يخلـق طمأنينـة في نفوسنا.

الإنسان عندما يشعر بخطورةٍ ما، يتوجه لدفعها بغض النضر عن تصنيف موقفه منها أنها حق أو باطل، أمـا الله فإنه يقول لنا: إنكم باهتمامكم المنطلق من إيمانكم الذي يبعثكم على التواصي فيما بينكم إنـه عـادةً مـا يكـون تواصٍ بالحق، فأنتم في ميدان مواجهة أعدائكم على حق، وأنتم في بذلكم لأموالكم وأنفسكم في سـبيل الله وفي سبيل دفع كيد أعدائكم إنه حق، إنكم وأنتم تتكلمون بكلمة تجرح مشاعر أعدائكم هي حق، إنه حق.

ألسنا في خصوماتنا فيما بيننا لا يكاد أحد منا يفكر؟ فيما إذا توجه شخص آخر ضده في موقفٍ ما، لا يفكر إلا في أن يدفعه، بغض النظر عن أنه حق أو باطل، الذي يسيطر على مشاعره هو أن ينطلق في دفع عـدوه، أو دفـع مـا يريد منه عدوه، أما الله فإنه قد قال لنا: بأنكم وأنتم تنطلقون من إيمانكم، وفي مسيرة الأعمـال الصـالحة إن مواقفكم حق، {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ}.

والحق أيضاً لّما كان عملاً، لّما كان بذلاً، لّما كان جهاداً، لّما كان قولاً بالحق، لّما كان مواقف تصل فيها إلى ألّـا تخشـى سوى الله سبحانه وتعالى، لّما كانت أيضاً عملاً دائماً، عملاً دائماً مستمراً، حركةً دائمة؛ فإنه لابد من الصبر، فأنـت توصي الناس بالحق، ثم تبيّن لهم كيف يمكن أن يكون حالهم وهم ينطلقون في ميادين الحق، فتذكّرهم بـأنهم بحاجة إلى الصبر.

وما أعظم الصبر، وما أعظم الصبر، وعلى الصبر يتوقف نجاح كل من ينطلقون في عمل، الصبر هنا: إذا كنا نتواصى بالحقِ ثم لا نتواصى بالصبر، سيكون الناس أسرع إلى التلاشي والإنفلات والابتعاد، وأسرع إلى التضعضع وعدم الثبات والاستقامة.

إن الحق يحتاج إلى أن يوطن الإنسان نفسه على العمل، {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} (الحديد: الآية١٦) إذا ما انطلقنا للتذّكير والوعي والتواصي بالحق، دون أن تكون أنت وأنت تسمع توطن نفسك على العمل، ودون أن أكون أنا وأنا أتحدث معك أوطن نفسي على العمل؛ فإن تذكيري لك، وإن سماعك وإن كان كل يوم، سينتهي في الأخير إلى قسوة في القلوب، وينتهي في الأخير إلى أن لا أستفيد لا أنا ولا أنت بذلك التذكير مهما كان بليغاً، {فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ} طال عليهم الأمد {فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ}.

فتسمع اليوم محاضرة تقول: والله جميلة بس أنا سمعت مثلها بالأمس، وأنا أريد أن أسمع غداً محاضرة جميلة، فنكون من يلحظ الجانب الفني في المحاضرات، دون أن نوطّن أنفسنا على العمل، ونكون نحن أيضاً من يخدع أنفسنا، أتحرك لأذكر، وأنت تتحرك أيضاً لتذكر، فتكون النتيجة في الأخير إذا لم يترافق عمل، إذا ما هناك تواصٍ بعمل تكون النتيجة غفلة، تكون النتيجة عكسية، نتيجة عكسية قد تأتي تلقائياً.

فعندما يقول الله سبحانه وتعالى: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ} (العصر) إنه تواصٍ عملي تواصٍ عملي.

أهل الباطل من يمتازون بأنهم لا يتواصون بالباطل مجرد كلام وإنما خطط عملية، تفكير عملي وبذلٌ لملايين الدولارات، وغربة عن الديار تسمع الآن البحار في البلاد الإسلامية مليئة بالشباب، من [ألمانيا، وإيطاليا، وفرنسا، وأمريكا، وأسبانيا] وغيرها من الدول.

غزاة فاتحون، ونحن أبناء الفاتحين، أصبحنا من نفتح بلداننا لهم، أصبحنا من نقعد في بيوتنا، وأصبح أولئك هم الفاتحون، وهم المجاهدون - إن صحت العبارة - وهم المقاتلون وهم المضحّون، وهم الباذلون، ليس فقط بالمئات، بل بملايين الدولارات؛ لذا ليس غريباً، ليس غريباً ما نرى أنفسنا عليه وما نراهم عليه.

إنها الحقيقة، ليست حال الدنيا، ليست حال الدنيا التي نقول ونردد: هكذا الدنيا، إنه العمل، كما كان الإمام علي (عليه السلام) يذكر أصحابه: ((والله إني لأخشى أن يدال هؤلاء القوم منكم، لاجتماعهم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم)) إنها سنة، سنة: أن يجتمع أهل الحق، أن تتوحد كلمتهم، أن يكون تذكيرهم عملي، أن يكون تواصيهم عملي، أن يكون خوفهم من الله فوق كل خوف من الآخرين، أن يكونوا من يخشون الله وحده ولا يخشون سواه؛ هم من سيقف الله معهم، هم من سيكونون حزبه الغالب، هم من سيكونون المفلحين، هم من سينتصرون، هم من سيعتزون، هم من سيقهرون أعداءهم.

إن الله هو القوي، هو العزيز، هو الجبار، ألم يذكّرنا بقوته في قوله: {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} (الحج: الآية٤٠) متى ما اتجه نحوك لينصرك، متى ما اتجه نحونا لينصرنا؛ فإنه القوي العزيز، القوي الذي لا يقهر، العزيز الذي لا يُغلب.. متى ما اجتمعت كلمة الناس، متى ما توحدت وإن كانوا قليلاً، متى ما هيئوا الأسباب لأن يكون الله معهم.

لاحظوا: نحن أحياناً نتحدث عن الوحدة، وقد يكون الكثير منا يقول: الوحدة، يجب على المسلمين أن يتوحدوا، لو توحد المسلمون، هذه حقيقة لكننا لم نلتفت إلى أن الوحدة ليست مرتبطة بالأمة كلها، بل لو توحدت منطقة، كان القرآن يخاطب مجتمعاً هو أقل من هذا المجتمع بتلك الآيات التي يقول فيها: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا} (آل عمران: من الآية١٠٣) التي كان يعدهم فيها بالنصر، يعدهم بأن يكون معهم.

كان المسلمون يخرجون وهم ثلاث مائة وثلاثة عشر، أو يخرجون وهم ثلاثة آلاف، أو وهم عشرة آلاف، وكانت كل تلك الآيات تتوجه إلى مثل ذلك العدد.

إن القرآن الكريم يقول لنا: إن الوحدة ليست مرتبطة بالمستحيل، إن تلك الوعود الإلهية ليست مرتبطة بما هو أشبه بالمستحيل: [بالأمة كلها]، ومن الذي يستطيع أن يوحد الأمة كلها؟ فنكون حينئذ نقول، أو نفهم خطئاً: [الوحدة فيما بين المسلمين مبدأ واجب، يجب على المسلمين أن يتوحدوا، لو توحد المسلمون] نردد هذا كلام، لكن نحن نضحي بحقيقة أخرى في ظل هذا الكلام؛ أنه لو توحدت محافظة، لو توحدت قبيلة، لو توحدت منطقة، ووفرت الأسباب التي رسمها القرآن، الأسباب لأن يكون مع هؤلاء، فإنه سيكون معهم، وإنه سيفي بوعده معهم، وإنهم سيكونون حزبه الغالب، وإنهم سيكونون هم المفلحون، وسيكونون هم من يتحقق فيهم: {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} (الحج: الآية٤٠).

(مَن) هذا الاسم الموصول، نحن من جعلناه يحيط بدائرة البلاد الإسلامية كلها، مع أن (مَن) يمكن أن تصدق حتى ولو على مئة شخص: {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} (الحج: الآية٤٠).

(مَن) اسم موصول، {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ} الذي ينصره، (والذي) تطلق على الفرد أكثر مما تطلق المجموعة، (ومَنْ) تفيد من ينصره سواءً كانوا مجموعة، أو كانوا قبيلةً، أو كانت محافظة، أو شعباً.

فأريد أن أنبه أيضاً بمناسبة الحديث عن هذه، أن خطباءنا عندما يتحدثون عن الوحدة، يجب أن نرسخ أن الوحدة يمكن أن تتوحد منطقة أو تتوحد طائفة كالزيدية، أو حتى نصف الزيدية أو ثلث الزيدية أو أقل من ذلك، فيكونون هم من يؤهلون أنفسهم لأن يكون الله معهم، وهم من سيستطيعون أن ينهضوا بمسؤوليتهم.

فلا نجعل الحديث عن الوحدة حديثاً عن المستحيل، نجعلها حديثاً مع الناس ممكناً، نجعلها حديثاً مع الناس يريده القرآن، يريده القرآن عندما يقول: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً} (آل عمران: من الآية١٠٣) هو خطاب لقبيلة، خطاب لقرية، كما هو خطاب للأمة بكلها.

{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} (العصر). أنا إذا كنت أنطلق دون أن أفهم الموقف فأوطن نفسي، أنا إذا كنت أنطلق دون أن أفهم أن أي عمل أتحرك فيه يحتاج إلى صبر، والصبر عندما يأمرنا الله سبحانه وتعالى به، هو أيضاً، هو أيضاً من بيّن في كتابه الكريم، أو من قدم لنا في كتابه الكريم ما يمكن أن يجعلنا صابرين.

ألم يرغبنا برضوانه وبجنته؟ ألم يرغبنا بوقوفه معنا؟ ألم يرغبنا أيضاً بأنه سيتدخل في أن يملئ قلوب الأعداء رعباً؟ ألم يتدخل هو أيضاً كما حصل في التاريخ، في تاريخ هذه الأمة؟ أنه أحياناً يتدخل في أن يكف بأس الذين كفروا عن المؤمنين: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا} (الحج: من الآية٣٨) إن الله ينصر الذي آمنوا، إن الله يملئ قلوب الكافرين رعباً، يملئ قلوب أعداء المؤمنين أعداءه رعباً.

ثم أيضاً: هو من رهبنا ترهيباً شديداً بجهنم، بسخطه بخذلانه، بالشقاء في الدنيا، بالخزي بالذلة بالمسكنة، بالضعة، بالانحطاط، خوفنا كثيراً.

نحن إذا ما فهمنا وعد الله ووعيده في القرآن الكريم؛ أنه يبدأ من الدنيا وينتهي بالآخرة، ليس فقط وعد ووعيد في الآخرة، إنه وعد ووعيد يبدأ من هنا من الدنيا وينتهي في الآخرة، إذا ما فهمنا وعد الله العظيم، ووعيده الشديد، حينئذٍ سنصبر، حينئذٍ سنصبر.

إذا ما عرفت الله سبحانه وتعالى معرفةً قوية، حينئذٍ ألست ستصبر! بل تتذوق، بل تستبشر، بل ترتاح لكل عمل تنطلق فيه مهما كان شاقاً، إن الصفة العظيمة التي حكاها الله لتلك الفئة العظيمة التي ستكون بدلاً عن كل من تخاذل، بدلاً عن كل من قعد: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} (المائدة: من الآية٥٤).

الإنسان الذي ينطلق في طاعة من يحبه، كل مشقة تبدو لديه جميلة، كل مشقة يتلذذ بها، كل مشقة يرتاح بها؛ لأنه يعلم أنه وإن تعبت في سبيل هذا الذي أحبه، فإنني سأكون أعظم قرباً إليه، وأنا أريد أن أكون قريباً

من مَن أحبه: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ}(المائدة: من الآية٥٤).

تكاد هذه الآية توحي لنا وهي تتحدث عن الجهاد؛ أن الحب لله الحب لله، هو من يجعل الصبر لديك شيئاً تلقائياً، هو من يجعلك فوق أن يقال لك: إصبر، تكاد أن تكون فوق أن يقال لك: إصبر؛ لأنك تنطلق في طاعة من تحبه، في قوله: {يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} ومتى ما أحبك الله ثَبّتك، هداك، أيدك، نصرك، أعانك، أرشدك، ومتى ما أحببت الله، انطلقت في كل ما فيه رضاه، وتبحث عن أعظم ما تحصل فيه على نسبة أكبر من رضوانه سبحانه وتعالى.

{فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ}(المائدة: من الآية٥٤) فيشعرون هم بأنهم حظوا بفضل الله، وما أعظم الإنسان أن يرتقي بإيمانه إلى هذه الدرجة، نكاد نكون على حالة ونحن نتعلم، أننا من ينظر إلى هذه التشريعات الإلهية أنها تكليفات شاقة ونتعامل معها من منطلق الخوف من العذاب، لا نكاد نستشعر أنها فضل من الله عظيم علينا! أنها نعمة كبيرة علينا، فقط آمنا بأن تركها جهنم فننطلق فيها، ونؤديها على أدنى مستوى.

لكن المؤمنين الذين يحبون الله هم من يرون بأن كل عمل ينطلقون فيه مهما كان شاقاً، مهماً بدى عند الآخرين شاقاً وصعباً، مهما بدى من وجهة نظر الآخرين شقاءً، فإنهم يرونه نعمة، ويرون أنفسهم في فضل عظيم، {ذلك فضل الله} في هذه البشارة المهمة؛ التي تعني أنه أعطاني فضلاً عظيماً: {يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ}(المائدة: من الآية٥٤) يؤتيه من يشاء، يؤتيه أناساً خاصين، يؤتيه فئة مختصة، فئة خاصة {وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}(المائدة: من الآية٥٤).

فنحن عندما نقرأ هذه الآية ـ أيها الإخوة ـ في صلاتنا [سورة العصر] تجد كيف أنها فيها ما يكفي بأن ينبهك، فيها ما يكفي بأن ينذرك، عندما يقول: كل إنسانٍ خاسر، البشرية كلها خاسرة، حتى وإن تسميت باسم الإسلام ستكون خاسراً، إذا لم يكن الإنسان على هذا النحو: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}(العصر).

أحياناً قد يكون الناس في خسارة من حيث لا يشعرون، أحياناً قد يكون الإنسان خاسراً وهو لا يشعر؛ لأن من أبرز سمات الخسارة أنك تكون ناسياً، أنك تكون ناسياً لله، وناسياً لنفسك، فهذه خسارة، هذه من علامات الخسارة، أن يكون الإنسان ناسياً، فلا يكاد يحس بواقعه أنه واقع خاسر، لا تكاد الأمة تحس بأنها خاسرة وأن ما هي فيه خسارة.

بل أحياناً تأتي مفاهيم غريبة داخل أوساط المتدينين أنفسهم، تلك الخسارة التي هي خسارة حقيقية، عقوبة على تفريط وتقصير بدر منهم، يقولون أنها حالة للدنيا مطلوب منهم أن يصبروا عليها، فيكونون يتعبدون الله في البقاء عليها والصبر عليها، نصبر حتى نلقى الله.!

أنت خاسر، أنت خاسر، حاول أن تنتقل إلى مرحلة الناجين، {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}(العصر) يقول لك: هكذا حال الدنيا، ونحن سنصبر حتى نلقى الله!.

الصبر الذي ليس صبراً، الصبر على الظلم، الصبر على الخسارة، الصبر على قهر أعداء الدين، لا يسمى في منطق القرآن صبراً؛ إنه ذلة، إنه ضعف، إنه جريمة، فنحن نتعبد الله بالذلة والضعة والإحباط، نسميها صبراً على قضية نعتبرها هي طبيعية في الدنيا، وهي حال الدنيا خلقت عليها، وهي إنما هي خسارة من ابتعد عن الإيمان العملي، وعن التواصي بالحق والصبر على الحق، إنها عقوبة، سواءً جاءت من جانب الله، أو نتيجة وقعنا فيها جراء ما عمله الأعداء، فنقول: هذه حال الدنيا، ونتعبد الله بالبقاء عليها، أليست هذه مفاهيم مغلوط؟!.

{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}(العصر) افهم بأني وأنت قد نكون خاسرين من حيث لا نشعر. ولهذا: كان من طبيعة المؤمنين، ومن صفات المؤمنين أن يكونوا يقظين، لأنهم هم من سينظرون إلى

واقعهم ويدركوه ويفهموا واقعهم، هل هو واقع ربما قد نكون في حالة هي حالة عقوبة، قد نكون في واقع هو واقع تفريط يعرِّضنا للعقوبة، قد نكون في حالة هي حالة تهيئنا لأن نكون لقمة سائغةً لأعدائنا، فيكونون يقظين، يقظين فيعرفون الموقف الحق في هذه القضية، في هذه الحالة، في هذا الزمن، فينطلقون نحو التواصي به، ونحو التواصي بالصبر عليه.

هكذا يكون المؤمنون، فحينئذٍ: يكونون بعيدين عن أن يعيشوا في خسارة، سواء من حيث يشعر الإنسان أو من حيث لا يشعر.

[الله أكبر ـ الموت لأمريكا ـ الموت لإسرائيل ـ اللعنة على اليهود ـ النصر للإسلام]

وإن من أعظم الخسارة أن يكون القرآن بين أيدي أمة ثم يكون هذا واقعها، القرآن الكريم الذي أبان لنا أعداءنا من هم، وكيف هم، وماذا يريدون بنا، وأنهم سيعملون دائماً، دائماً بكل ما يمتلكون من قدرة ضدنا.

ثم أخبرنا كيف نؤهل أنفسنا ضدهم، كيف نكون بمستوى مواجهتهم، ثم أخبرنا كيف ستكون النتيجة عندما نؤهل أنفسنا على وفق تلك الخطة التي رسمها، وأنه سيكون معنا يُخبرنا كيف ستكون نتيجة أولئك الأعداء، أبان للأمة، أوضح للأمة، رسم الطرق، طرق الغلبة، طرق النجاح، طرق الفلاح، ومع ذلك، لا نكاد نفهم ما يدبره أعداؤنا!.

لقد لمس أعداؤنا أننا هكذا: ناسين، ضائعين لا نكاد نفهم شيء، بل محتمل وهو المتوقع أنهم يستفيدون هم من القرآن الكريم في سبيل مواجهتنا، أكثر مما نستفيد نحن في سبيل مواجهتهم! هم يعلمون أن هناك سنناً إلهية، أن هناك سنناً إلهية، أن من أوكلت إليهم مسؤولية إلهية إن فرطوا فيها يكونون عند الله أسوأ من غيرهم، قد يكونون هم يستحقون العقوبة أكثر من غيرهم في الدنيا قبل الآخرة.

يعرفون أن هناك سنناً إلهية، في أن يكون الله مع هؤلاء أو هؤلاء، متى ما توفرت تلك الأسباب التي تجعل الله معك؛ فإنهم يفهمون أنهم لا يستطيعون أن يعملوا ضدك شيئاً، فهم من استفادوا ليعملوا كيف يفصلونا عن الله، كيف يفصلونا عن الله، فماذا يحصل حينئذٍ؟ ستكون أنت حينئذ من تواجه جهتين، من تعمل جهتان ضدك.

الله سبحانه وتعالى يعمل ضدك، عقوبة، عقوبة لك على تفريطك، على نسيانك، على تقصيرك، على إهمالك، على إعراضك عن ذكره وهديه، ويكون عدوك هو أيضاً من يشتغل ضدك في كل شيء بكل ما يمتلك، فيواجه الإنسان خطرين، يواجه الإنسان خطرين؛ لهذا نقول: أحياناً إن اليهود يُعرِّضوننا ليس فقط لضرباتهم؟ بل لضربات الله أيضاً، وإن ضربات الله هي أشد من ضربات الأعداء هؤلاء. إن ضربات الله هي أشد، هي أشد وأسوأ علينا من ضربات الأعداء، خسارة الأمة أنها لا تهتدي بالقرآن الكريم وهو كتاب فيه خطة لكيف يكون الله معك.

لو جاءت أمريكا إلى قبيلة من القبل، وتقول: هذه خطة تسيرون عليها وسأكون معكم، ستكون أمريكا كلها بكل قوتها معكم، لانطلقت تلك القبيلة، لانطلق ذلك الإنسان، لانطلق ذلك الزعيم، أليس زعماء العرب يتسابقون على أن يحظوا بأن تكون أمريكا معهم وليس مع الآخر؟ هم يتسابقون على ود أمريكا، يتسابقون على صداقة أمريكا، وهل بلغ الأمر أن أمريكا تعدهم بأنها ستكون معهم على النحو الذي وعد الله به أولياءه؟ لا. وهم يتسابقون، وهم يتسابقون، ونحن كيف لا نتسابق إلى أن نسير على الخطط التي تجعل الله سبحانه وتعالى معنا إذا ما سرنا عليها.

{فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ} (محمد: من الآية٣٥) {إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} (محمد: من الآية٧) {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} (النحل: الآية١٢٨) ما أكثر الآيات التي تعد المؤمنين إذا ساروا على نهج الله، تعدهم بأن يكون الله معهم، وعندما يقول الله أنه سيكون معهم، أنه سيكون معنا؛ فإنه القوي العزيز الجبار المهيمن، الغالب على أمره.

فنحن - أيها الإخوة - يجب أن نعرف جلياً معاني هذه السورة عندما نقرؤها، ونعرف أنه إذا كان الإنسان سيخسر إذا لم يكونوا مؤمنين ويعملون الصالحات، ويتواصون بالحق وبالصبر، سيخسر تلقائياً حتى ولو يكن هناك أعداء فإن أعداءنا هم من يعملون جاهدين على أن يوقعونا في الخسارة، في أفظع مواقع الخسارة، أن نكون خاسرين في الدنيا، وأن نكون خاسرين في الآخرة.

إنه عمل الشيطان، أليس الشيطان هو الذي يعمل على أن تكون خاسراً في الدنيا؟ لأنه عدوك، هو عدوك لا يعمل على أن تكون سعيداً في لحظة من اللحظات، لا يعمل على أن تكون مفلحاً في حالة من الحالات، سيعمل على أن تكون خاسراً في الدنيا، ثم أن تكون خاسراً في الآخرة، {إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} (فاطر: من الآية٦).

فلاحظوا: ماذا يعمل أعداؤنا؟ عندما يتجهون لمحاربة ديننا ألم يوفروا شيئين؟. هو أن يوقعونا في الخسارة في الدنيا، بل ها نحن نرى هذه الأمة خاسرة، وأيضاً ليوقعونا في الخسارة في الآخرة، وما أشدّ الخسارة في الآخرة، {قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} (الزمر: الآية١٥) ألا ذلك هو الخسران المبين، ألا ذلك هو الخسران المبين.

هو خسران قد يوصلك إليه اليهود والنصارى من حيث تشعر ومن حيث لا تشعر، خسران قد يوصلك فيه تفريطك بأن تقف في وجوههم، خسران يوقعك فيه إعراضك عن أن تتفهّم ما يعملونه ضدك وضد دينك، وإعراضك عن أن تتفهم جدوائية ما يمكن أن تعمله ضدهم، {قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ} (الزمر ١٥-١٦) نعوذ بالله من نار جهنم، نعوذ بالله من الخسارة في الدنيا وفي الآخرة.

فنحن - أيها الإخوة - عندما نرى أنفسنا في خسارة؛ إن الله سبحانه وتعالى فتح أمامنا أبواب الفلاح، وأبواب النجاة، وأبواب النجاح، فلنتّجه إلى هذه الأبواب فنطرقها، لنعود إلى الله سبحانه وتعالى، ليوطّن كل فرد منا نفسه على أن يكون صادقاً مع الله، وأن ينطلق في مواجهة أعدائه، قبل أن يوقع بنا أعداؤنا الخسارة هنا في الدنيا، وقبل أن نقدم على الله خاسرين في الآخرة.

وإننا نستطيع أن نعمل الكثير إذا ما توحدت كلمتنا، نستطيع أن نقف في وجوه أعدائنا إذا ما هيئنا الأسباب التي سيكون الله سبحانه وتعالى معنا إذا ما وفرناها.

فلننطلق في هذه الميادين التي فيها رضى الله سبحانه وتعالى، وهذا هو ما أمرنا الله به، وهذا هو أيضاً باب من أبواب هدايته، إن الله يأمرنا بذلك عندما يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ} (الصف: من الآية١٤) وإن هذا هو من أبواب الهداية إلى تأليف قلوبنا، إلى وحدة كلمتنا، ألم يقل سبحانه وتعالى: {وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ} (آل عمران: من الآية١٠٣) متى ما اتجه الناس إلى الاعتصام بحبله جميعاً، ليقوموا بمسؤوليتهم التي أوجبها الله عليهم، وفرضها عليهم؛ فإنهم وإن كانوا يرون أنفسهم في حالة من التباين، هو من يتدخل فيؤلف بين قلوبهم، {وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا} (آل عمران: من الآية١٠٣).

نحن على شفاء حفرة من النار، نريد أن نقع فيها بتفريطنا، بإعراضنا بتقصيرنا، ويريد أعداؤنا أن يوقعونا فيها في تلك الحفرة، فكما أنقذنا الله في البداية، يجب أن نعمل على أن ينقذنا الله أيضاً.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرشدنا إلى الصواب، أن يرشدنا إلى التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وأن يؤلف بين قلوبنا، وأن يوحد كلمتنا، وأن يجعلنا صادقين معه، مخلصين له، محبين له، أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، نجاهد في سبيله ولا نخاف لومة لائم، نبلغ رسالاته ولا نخشى أحد سواه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أسئلة بعد المحاضرة

س ـ ما هو دور الخطيب للجمعة أو المرشد؟

ج ـ اللهم صل على محمد وآله الطاهرين. قلنا: المرحلة هذه، من خلال واقع الأمة، وما يتعرض له الإسلام والمسلمين، هو واقع يتطلب من كل إنسان مسلم مؤمن، هو أن ينطلق في المقام الأول في التواصي بالحق، والتواصي بالصبر، أليست هذه مهمة إرشادية عملية؟ كل مؤمن وليس فقط الخطباء، الحق أحياناً قد يكون التواصي به، هو تواصي بالموقف، وبالتوعية في إطار تأهيل الناس للموقف، أو شر من شرور الأعداء، التوعية نفسها هي من التواصي بالحق؛ لأنه أن تكون واعياً، أن تكون فاهماً ما يريد الآخرون منك، هو هذا موقف حق، ورؤية حق.

فعندما نجد أن القضية هي أوسع من الخطباء، فأنت كمؤمن لا بد أن يكون لديك ثوابت وقواعد تخلق لديك وعياً، فلنذكّر الناس بهذا كل ما سمعنا قروض كل ما سمعنا إعفاءات عن قروض كل ما سمعنا مساعدات ماليه، إنها لا تخرج عن إطار أن نبيع ديننا وكرامتنا ووطننا منهم، مقابل تلك المبالغ.

ونحن في نفس الوقت، لا ننظر إليها كثمن، بل ننظر إليها كجميل قدموه إلينا، هذا من العجيب! هذا من الخبث الذي وصل إليه اليهود؛ أنهم يشترون منك دينك بثمن بخس، ثم أنت لا تنظر إلى ما قدموه كثمن، هل أحد عندما تقدم إليه ثمن سلعته يرى أن الآخر قدم له جميلاً. لا..

لكن أما نحن أوصلونا إلى هذه، أن تبيع منهم دينك ووطنك وكرامتك، ثم الثمن تراه مساعدة أيضاً، قد قدموا لك الجميل! هذا شيء غير طبيعي. نحاول أن نرسخ الوعي الصحيح فيما يتعلق بهذه.

س ـ ما هي عوامل الوحدة بين الناس؟.

ج ـ الوحدة بين الناس، الوحدة بيننا كمسلمين، نحن لا نعطيها اهتماماً كبيراً كما ينبغي باعتبارها مبدأ من أهم مبادئ ديننا، وباعتبارها قضية نحن في أمس الحاجة إليها.

الوحدة: لها أسبابها، لها أسبابها، أن يحسّن الناس التعامل فيما بينهم، أن يقللوا من الإشكالات فيما بينهم، أن لا يسمحوا للمشاكل أن تطول وأن تتطّور فيما بينهم، أن يبادر الخيِّرون فيهم إلى حل المشاكل الطارئة، أن يتعاون الجميع على حل أي إشكال يطرأ، هذا فيما يتعلق بالمشاكل.

فيما يتعلق بالتعامل، أن يكون هناك عفو، وأن يكون هناك كظمُ غيض، وأن يكون هناك بذل للمعروف، ويكون هناك تواصل، ويكون هناك بذل للإحسان، ويكون هناك جميل وإحسان فيما بين الناس في تعاملهم مع بعضهم بعض ووفاء، حتى تتعزز الألفة فيما بينهم، وحتى لا تظهر إشكالات أو تظهر حالات تؤدي إلى تباين النفوس، تبقى الأجواء سليمة، وصلاح ذات البين كما قال الإمام علي (عليه السلام) في حديث رواه عن رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) ((أفضل من عامة الصلاة والصيام))؛ لأنه إذا فسد ذات البين ضعفت الأمة، إذا ضعف الناس تغّلب أعداؤها، إذا تغلب الأعداء أفسدوا.

عندما ينتشر الفساد تصبح الصلاة لا تعطي قيمتها، يصبح الصيام لا يعطي قيمته في النفوس، فتصبح شكليات لا غاية منها، أو لا فائدة منها.

الوحدة أيضاً: لها أسبابها فيما يتعلق بالله سبحانه وتعالى، فيتجه الناس بصدق إلى أن يهيئوا أنفسهم لأن يقفوا في وجه أعدائهم، وأن يجاهدوا في سبيله، متى ما اتجه الناس إلى هذه القضية الكبرى، فكل واحد ممن يتجه إليها بصدق، سيرى بأنه أصبح يحرص على أخيه على صاحبه، أن تبقى كلمتنا واحدة؛ لأننا لا بد أن نقف في يوم من الأيام ضد أعدائنا موقفاً واحداً، فلشدّة اهتمامي بتلك القضية، لشدة حرصي عليك سيكون تعاملي معك حسن.

ثم في نفس الوقت: عندما تكون النوايا خالصة، الله سبحانه وتعالى هو من يؤلف بين القلوب، هو من يملأ القلوب حباً وإخاءً فيما بين المسلمين، فيما بين من ينطلقون هذا المنطلق.

ثم لنفترض أن القضية قد لا تصل بنا إلى هذا الحد، أو أن ننتظر إلى أن نصل إلى هذا المستوى لكنها قضية يجب أن نصل إليها هناك أيضاً أسلوب هو يعتبر في واقعه أسلوب مستعجل، أسلوب مستعجل، حصل مثله للنبي (صلوات الله عليه وعلى آله) أن يلتف الناس حول علم، من باب أننا كلنا نشعر بمسؤولية واحدة، نشعر بمسؤولية واحدة، وأني أنا وإن اختلفت معك، وإن كنا في أثناء خصومة فيما بيننا على مزرعة أو على أي قضية أخرى، لا يؤدي ذلك إلى أن نختلف حول القضية الأساسية، نحن متفقون على القضية، ومتفقون على العَلَم الذي يقودنا في هذه القضية.

فهذا أيضاً من الأشياء التي يمكن أن تتوفر للمسلمين مستعجلاً، كما توفرت على يد الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) عندما وصل إلى المدينة، هل أن المسلمين في المدينة كانوا قد بلغوا إلى درجة عالية من صفاء النفوس، والألفة والأخوة؟ لكن عندهم قاعدة: نتوحد حول هذا، فالتفوا حول الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) وانضووا تحت لوائه، حتى كان أحياناً تطغى بينهم اختلافات، بل كان أحياناً تكاد تطغى بينهم ما هو إثارة لماضيهم يوم كانوا مختلفين متحاربين، لكنهم كانوا يلتقون على الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) وكان هو من يستطيع أن يهدأ الأوضاع، ويلتفون حوله ويجاهدون تحت رايته حتى وإن كان لا يزال بينهم خلافات من أي نوع كان.

فنحن بحاجة إلى الأمرين جميعاً، نحن بحاجة إلى الأمرين جميعاً، ونحن بحاجة إلى أن نهيئ أنفسنا لأن يتدخل الله سبحانه وتعالى هو، فيؤلف بين القلوب، ومتى ما تألفت القلوب، فإن وحدة الموقف ووحدة الكلمة تكون تلقائية فيما بين الناس، والصدق مع بعضهم بعض، والحرص على بعضهم بعض، يصبح أيضاً تلقائياً فيما بينهم.

تم هذا الإخراج الجديد
بإشراف
يحيى قاسم أبو عواضة
بتاريخ: ١٣ ذو الحجة ١٤٣٣هـ
الموافق: ٢٠١٣/١٠/١٨م